المبحث الثاني: ترجمة النصوص الأدبية وخصائصها

للنص الأدبي مميزات وخصائص لغوية وثقافية ذلك لأن اللغة هي عنصر أساسي من عناصر الثقافة المحدّدة لهوية المجتمعات وتاريخها، والوعاء الذي يحوي هذه المميزات ويحفظها. وقد أخذ البعد الثقافي قسطا وافرا في الدراسات الترجمية نظرا لأهميته في الممارسة الترجمية وأثره في تحديد منهجية الترجمة التي تُلبّي الهدف المرجو من العملية، وهذا ما يدفعنا إلى إدراك الصعوبات في ترجمة هذه المميزات حتى تضطلع الترجمة بالدور المسند إليها.

ما طبيعة العوامل والخلفيات التي تطرح إشكالية ترجمة النصوص الأدبية بمميزاتها اللغوية والثقافية؟

الترجمة الأدبية فرع من فروع الترجمة تعنى بترجمة الأدب بأنواعه المختلفة مثل الشعر والرواية والمسرح وما إلى ذلك، وتقتضي نقل النصوص الأدبية من شفرة لغوية إلى أخرى وذلك ابتغاء نقل المعنى الذي قد يكون إما إحاليا محضا (**référentiel**)، بمعنى إحالة القارئ إلى دلالة الألفاظ التي يريد المؤلف أو صاحب النص التعبير عنها، وإما أدبيا فيتضمن عناصر بلاغية وبنائية وفنية متجاوزا بذلك إلى المغزى (**signification**) والتأثير (**l'effet**) المفترض أن يعتزم المؤلف إحداثه في نفس القارئ. (م. عناني، 1998، ص 6)

وتُعد الترجمة الأدبية بالنظر إلى طبيعة النص الأدبي ولغته، من أصعب الترجمات مراسا لأنها تتميز بإشكالية مُركبة متعددة المشارب تحكمها شروط إبداعية وجمالية وأسلوبية ولسانية وغير لسانية، الأمر الذي أدّى ببعض المنظرين إلى مد أفق الترجمة إلى شعرية ترجمية تفترض نظرية أدبية تربط ذاتية المترجم بترجمة الأثر وليس الإجراء ليصبح المترجم كاتبا شريكا (co-auteur) أو كاتبا معيدا (réécrivain). (Ladmiral, 1994, p. 21). ويُعتبر المترجم مبدعا ثانيا بالنظر إلى تباين لغة النص الأصل والنص الهدف، لأن الأمر يتطلب منه جهدا أشق من الجهد الذي يُبذل في التأليف، ذلك أن المترجم يكون محصورا في كلام المؤلف ومعانيه وليست له الحرية في اختيار الأفكار والمعاني التي تحلو له. فلن يتسنى له العمل إلا في ظل معالم نفسية محددة يفرضها النص المصدر الذي يجب أن يتحسّس تفاصيله ويحافظ على أصالته دون تشويه.(إ. ز خورشيد، 1978، ص 5)

وفي كون المترجم قارئا ومعيدا لكتابة النص، تقع على عاتقه مهمة مزدوجة تتمثل في إدراك شحنة المعاني ضمن ثقافة النص الأصل ولغته، ونقل الشحنة نفسها من خلال مادة لغوية مناسبة لقرّاء النص الهدف. (Mason in Bahaa-eddin, 2011, p. 5). لأجل ذلك، وجب عليه مد جسور

الحوار بينه وبين النص الأصل وصاحبه دون إهمال المتلقي حتى ترتسم أمامه أهداف النص والترجمة والمتلقي. كما هو مطالب بإعادة إنتاج عمل فني يعادل الأصل شكلا ومضمونا والحرص على خلق أثر كفيل بإثارة رد فعل عاطفي وانفعال جمالي يماثل إلى حد ما ذلك الذي يخلفه النص الأصل. وفي هذا السياق، تقول جوئيل رضوان (1985) : « الترجمة الأدبية عملية إبداعية تخضع لمعايير جمالية فنية لا تقتصر على المعيار الوظيفي أو اللغوي المحض».

وتكون الترجمة في النصوص الأدبية أصعب منها في العلمية أو الإخبارية لأن العمل الأدبي ليس فكرة أو خبرا محمولا فحسب وإنّما تجربة إنسانية تحمل في طيّاتها أحاسيس وعواطف وتصورات مختلفة تعكس الإرث التاريخي والشحنة الثقافية الكامنين في مكوناتها التي لا يمكن إهمالها بأي شكل من الأشكال. لذا وجب على المترجم حينما يتعامل مع النص الأدبي أن يحرص على إعادة تشكيل المكافئ الطبيعي الأقرب لرسالة لغة المتن، في لغة المتلقي للترجمة أولا من ناحية المعنى وثانيا من ناحية الأسلوب. (إ. بيوض، المرجع السابق، ص 37). فإذا كان الانزياح أحد المعايير التي تُقاس بها الأدبية، فلا بُدّ على مترجم الأدب أن يأخذ بعين الاعتبار هذا المعيار مستعينا في ذلك بفطنته وجزالة أسلوبه، وخاصة عندما يتعلق الأمر بوحدات معجمية غير مُكرّسة وبُنى نحوية خارجة عن المألوف. (إ. بيوض، المرجع نفسه، ص 44) وفي سياق الحديث عن الأسلوب، يقول لاندرس Landers (2001): «لا يلقى الأسلوب في الترجمة الفنية على سبيل المثال اهتماما كبيرا طالما تجد المعلومة طريقها دون تغيير من النص الأصل إلى النص الهدف ... أما في الترجمة الأدبية ... يمكن للأسلوب أن يميّز بين ترجمة حيّة تشد إليها القرّاء، وترجمة عرجاء جامدة ومصطنعة تُجرّد الأصل من جوهره الفني الجمالي وحتى روحه».

كما تتطلب الترجمة الأدبية حسب ريفاتيري : « الحفاظ على أسلوب النص الأصل أي الكلمات التي يختارها الكاتب أو الطريقة التي يبني بها تراكيبه، وأن تعكس جميع سماته الأدبية مثل الآثار الصوتية واختيار الكلمات والصور البيانية».إذ نجد أن « طبيعة عملية الترجمة (الأدبية) هي نقل يحدده المحتوى والشكل، المحتوى الذي يتشكل من المعاني، والشكل الذي يحدّده الأسلوب» (إنعام بيوض، المرجع السابق: 34) فالشكل في النصوص الأدبية « ليست له وظيفة ترابطية فقط، بل وظيفة جمالية أيضا (...) إذ لا يكفي تحقيق التطابق اللساني بين العمل الأدبي وترجمته، بل يجب تحقيق التطابق الفنّي أيضا». (المرجع نفسه، ص 37).

ولعل خصوصية الأسلوب وظاهرة الغموض المتواجد في ثنايا الرموز والإيحاء من أهم ما يميّز النصوص الأدبية ومن أكبر خصائص الخيال الأدبي، وهي تشكل أكبر تحد قد يواجهه المترجم يُجبره

على بذل جهد مضاعف ليتمكن من معانيه، حيث يتضمن النص الأدبي حسب جوئيل رضوان « المعاني المصرّح بها « ce qui est dit» والمعاني الضمنية «et le non dit» ومقاصد الكلام «le vouloir dire» » (المرجع السابق، ص 177). و يقول جورج مونان (1963) في السياق نفسه:

« إذا سلّمنا باستحالة الترجمة، سيقودنا الأمر تسع مرات من عشر إلى التفكير في الإيحاءات التي تقف عائقا أمام نقل حضارة من "نظرة إلى العالم" إلى نظرة أخرى، من لغة إلى أخرى، بل حتى بين أفراد تجمعهم الحضارة الواحدة والنظرة إلى العالم الموحدة واللغة المشتركة ». فمعاني النص الأدبي لا تتجلى بوضوح إلا لقارئ مُتَروٍ في القراءة مُلمٍ بلغة الأدب وخصائصها، الشيء الذي يُحتِم على المترجم التحلّي بهذه الصفات حتى يتسنّى له فهم النص وسبر أغواره وتأويل معانيه واكتشاف نظامه وخصائصه مستعينا في ذلك بكفاءته اللغوية والموسوعية وحتى النقدية.

لقد أدرك المنظرون صعوبة الترجمة الأدبية وأنها لا تُتاح إلا للمترجم المتمرّس الماسك بزمام خصائص الإبداع الأدبي، لذلك «كان المترجمون الأكفاء في بداية القرن العشرين في أغلب الأحيان أنفسهم أدباء» (Y, Hellal, 1986, p. 10)، و « أن أول شرط يتبادر إلى أذهاننا أن يكون المترجم المنتج للأثر الأدبي الذي يحاكي الأثر المترجَم، هو نفسه أديبا راسخ القدم في التأليف الأدبي ولا يكفي أن يكون مُلما أحسن إلمام باللغتين، فالأدب روح واستعداد وسليقة وهذه أشياء لا تستند إلى طبع في النفس ولا تُكتسب». (محمد عوض، 1969، ص 29). ومعناه أن يكون المترجم أديبا مُلما بالأدب وقواعده ومدارسه وفنونه، يتحلى بحس أدبي وذوق فني. فإن لم يكن كذلك، فأقله أن يكون متذوقا للأدب محبا لفنونه إذا لم تتيسر له ممارسة الأدب إنتاجا، ليتمكن من رصد أفكار الأديب ومشاعره وأحاسيسه ويتمكن من نقلها بكل دقة وصدق، إذ يحتوي كل أثر أدبي على معنى ضمني لا يتطابق مع المعنى المادي أو اللغوي، لا يمكن لسواه أن يُحدث في أنفسنا الأثر الجمالي الذي أراده المؤلف، وهذا المعنى هو الأجدر بالنقل.

فالترجمة الأدبية لا تعني أن نحسن نقل الكلمات من لغة إلى أخرى بل التمكن من نقل المشاعر والروح التي فيها وكذا الأحاسيس والمشاعر التي تختلج صدور الأدباء نقلا حقيقيا، «ولا تتوقف حاجة المترجم خلال عملية ترجمة النصوص إلى كفاءة لغوية في كلتا اللغتين المنقول منها والمنقول إليها فحسب، بل تتعداهما إلى معرفة كلتا الثقافتين وتقاليد التعبير فيهما». (Enkvist in Bahaa-eddin, op cit, p. 5)